

المبحث الرابع: مقاصد القرآن الكريم

دعا القرآن الكريم إلى الكثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها والتي من أهمها:
أولاً: تصحيح العقائد والتصورات:

1 - القرآن العظيم من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد وإنكار للشرك وبيان لحسن عاقبة المشركين في الدارين وقد اعتبر القرآن الشرك أعظم جريمة يقتربها مخلوق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

وإن حقيقة الشرك انحطاط بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون - كما أراد الله له - إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جماداً أو نباتاً، أو حيواناً، أو إنساناً إلى غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتَ لَكُمْ آلَاتِنُمْ إِلَّا مَا بُدِنَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَبَرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 30 - 31].

والدعوة إلى التوحيد هو المبدأ الأول المشترك بين رسالات النبيين جميعاً، فكل نبي نادى قومه أن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

فلا مكان للوسطاء بين الله ﷻ وبين خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرفة من عقيدة التوحيد، حتى اليهود جعلت الرب أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم ويخاف، ويصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعده منه بمباركة نسله فأطلق سراحه. والنصرانية، تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنية حتى امتلأت الكنائس بالصور والتمائيل، وأخذت عقيدة التثليث والفداء من عقيدة الهنود في «كرشنة» كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة ووضعوا اسم «يسوع»⁽¹⁾.

ثانياً: تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 66.

﴿وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾
[البقرة: 213].

وقال تعالى: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
[النساء: 165].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: 64].

بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار:

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: 165].

فليس الرسل آلهة ولا أبناء آلهة، إنما هم بشر يوحى إليهم
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: 110].

يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هداية
القلوب ولا السيطرة عليها ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21 - 22].

- تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل،
بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10].

وقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: 24].

فقد رد عليهم القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: 11].

ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُورُ
مُطَمِّئِينَ لَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 95] (1).

(1) كيف تتعامل مع القرآن العظيم، ص: 67.

- بيان عاقبة الذين صدقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين، وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم تنتهي دائماً لهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا نَبَّيْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ [الفرقان: 37 - 39].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103].

ثالثاً: تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة:

ومما عني به القرآن وكرره في سورة المكية والمدنية:

الإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى:

- فمنها: إقامة الأدلة على إمكان البعث ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأهم أول مرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

- ومنها: التنبيه على خلق الأجرام العظيمة التي يعتبر خلق الإنسان بجوارها شيئاً هيناً.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِنَّ عَلَيَّ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

- بيان حكمة الله تعالى في الجزاء حتى لا يستوي المحسن والمسيء، والبر والفاجر في النهاية تكون الحياة عبثاً وباطلاً يتنزه الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

- إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن أهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهل الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم وهذا ما كذبه القرآن وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحد، ولا ينفع الإنسان إلا سعيه، ولا يحمل وزر غيره ﴿أَلَا نُرِزُّ وَرِزَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: 38 - 39].

قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18].

قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

وقال تعالى: ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يُظَلِّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

- بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان، وما أعد للكفرة الفجرة من العقاب والخسران، ولهذا كثر حديث القرآن عن القيامة وأهوالها، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حتى لا يضيع على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفساً شيئاً ولا يحتمل وازرة ووزر أخرى. وعن الجنة وما فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم الحسي والمعنوي، ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتداد لإنسان الدنيا روح وجسم، فلا بد أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما⁽¹⁾.

رابعاً: تزكية النفس البشرية:

ومن مقاصد القرآن: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاح في الأولى والآخرة لها إلا بالتزكية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ حَاقَبَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7 - 10].

فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسيها، استعدادها للتعوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أي الطريقتين: طريق التزكية أو طريق التدسية، ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14].

وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 68.

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ [طه: 75 - 76].

ورسالات الأنبياء جميعاً كانت - من مقاصدها - الدعوة إلى
التزكية، ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أرسل إليه من
ربه: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:
18 - 19].

وكان من الشعب الأساسية لرسالة محمد عليه السلام: التزكية، كما
جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله، منها ما جاء في دعوة
إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

ومنها قوله عليه السلام: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 21].

كما لا بد من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18].

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كتولاه تعالى في أثر الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

كما بين أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه التزكية المنشودة للأنفس، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحَفِظُوا أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ أَرزَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: 30].

وقال في أدب الاستئذان: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: 28].

إن الذي لا ريب فيه: إن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى بتزكية هذه الأنفس حتى تنتقل من «الأنفس الأمارة بالسوء» إلى «الأنفس اللوامة»، ثم «الأنفس المطمئنة»، وهذا يحتاج إلى جهاد لكنه جهاد غير ضائع، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]⁽¹⁾.

(1) كيف تعامل مع القرآن الكريم، ص: 85.

خامساً: عبادة الله وتقواه:

1 - لقد بين القرآن أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الزاريات: 56].

فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].

ومن هذه النعم، نعمة الإيجاد، ونعمة الرزق، ونعمة العقل، ونعمة الإرادة، ونعمة القدرة، ونعمة البيان «اللطفي» و«الخطي» ونعمة تسخير الكون للإنسان. وعدد القرآن جملًا من هذه النعم الوفيرة السابعة في عدد من سور القرآن، أظهرها في سورة النحل التي تسمى «سورة النعم»، ومن حق الخالق الرازق المنعم أن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يطاع فلا يعصى، ولا يتأتى ذلك إلا بالعبادة الخالصة له، فالعبادة من حقه وحده جل وعلا، ولذا قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: 21 - 22].

وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواه ووعود ووعيد، نجدتها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى وعبودية الإنسان له، فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقل ذلك وبعده ما تقتضيه

صفات الباري - جل وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله حكيماً عليماً، خلق كل شيء وقدره تقديرًا، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، وإذا كان القرآن المجيد وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه، ولذلك جعل الله دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: أن تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله⁽¹⁾.

فالعبادة في مفهوم الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضى: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد على الكفار والمنافقين، والإحسان على الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا لقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة⁽²⁾.

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من

(1) العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص: 53.

(2) مجموع الفتاوى لابن تيمية (150/10).

نشاطات الإنسان وأعماله سواء إن كان ذلك في العبادة المحضة أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها⁽¹⁾.

ولذلك يحرص المسلم أن تكون حياته كلها عبادة من لحظة التكليف إلى الموت، امثالاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

وهذه العبادات كلها تعد المسلم لتقوى الله، كما جاء في الآية التي ذكرناها: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]⁽²⁾.

2 - تقوى الله: وهي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقاية من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله⁽³⁾، وأساس تقوى الله خشية الله وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرَةَ اللَّهِ فِئْتَاهَا مِنْ نَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

والله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه لتكون حافزاً له على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 185.

(2) كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص: 79.

(3) فقه النصر والتمكين، للصلاحي، ص: 204.

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿ [المائدة: 35].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٨﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿ [الأحزاب: 70 - 71].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿ [التوبة: 119].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ [الأنفال: 1].

ويذكر الله في القرآن التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكون دافعاً لئلا تنتهأ عنها، كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ أَرْبَابٍ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ [البقرة: 278 - 279].

بل يقص علينا القرآن أن الرسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء نوحاً، وهوداً، وصالحاً ولوطاً، وشعبياً يقول كل منهم لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: 50].

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131].

ولم يكتف القرآن من المؤمنين بمجرد التقوى، بل قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، ومعناه: بذل الجهد واستفراغ الوسع في تقواه **بِرَّوَجَلٍ**، في حدود الطاقة والاستطاعة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، وليست هذه الآية

ناسخة للآية الأخرى، بل مبينة لها: أن تقوى الله حق تقواه انما تطلب في إطار المقدور للمكلف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والتقوى لا تعني العصمة من الذنوب، والمتقون ليسوا ملائكة أظهاراً، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي رهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

فإذا ذلت قدم أحدهم إلى المعصية فسرعان ما يثوب إلى رشده ويتوب إلى ربه ويقرع بابه مستغفراً، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرِحُوا إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى العاجلة والآجلة:

- المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد:
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 - 3].

- السهولة واليسر في كل أمر:
قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].
- تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].

- إطلاق نور البصيرة :

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

- محبة الله ومحبة ملائكته والقبول في الأرض :

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: 76].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد

أحبيت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»⁽¹⁾.

- نصرة الله تعالى وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 194].

- البركات من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبَلُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ

بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

- البشرية وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي

(1) مسلم، كتاب البر والصلة (4/2030)، رقم 2637.

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ [يونس: 62 - 64].

والبشرى هي الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان في كتابه، وعن النبي ﷺ: الرؤيا الصالحة من الله (1).

وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: «الرجل يعمل لله ويحبه الناس، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن» (2).

- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَبْضُرَّكُمْ كَيْدَهُمْ سَيِّئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9].

وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافاً، إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى يحفظ أبناءهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياح أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82].

(1) البخاري، كتاب الرؤيا، رقم 6986.

(2) مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أتى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (2642/

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما⁽¹⁾.
سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

- سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلَمَنَى عَلَى الْهُدَى
فَأَخَذَتْهُمُ صَاحِقَةٌ أَلَمُونَ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَجَنَّتْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَانُوا يُنْفِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: 17 - 18].

- تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار وعظم الأجر هو
سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾
[الطلاق: 5].

هم الورثة لجنه الله:

قال تعالى: ﴿بَلَاغٌ لِّكُلِّ نَبِيٍّ مِّنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ يَتَّقِي﴾ [مريم:
63].

- يسرون إلى الجنة ركبانا:

مع أن الله يَرْزُقُهُمْ يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشقتهم.

قال تعالى: ﴿وَأَرْزَقْنَاهُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85].

- تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صدقة ومجبة إلى عداوة ومشقة:

قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ومن بركة التقوى أن الله ﷻ ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿١٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 45 - 47] (1).

دعوة القرآن إلى التقوى تتخذ أساليب شتى من الأمر بها، وبيان آثارها والثناء على أهلها والترغيب في محاسنهم وتجلية فضائلهم والترهيب من تركها والإعراض عنها والإنصاف بأضدادها، حتى يظهر الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى وأهل الإثم والعدوان (2).

سادساً: إقامة العدل بين الناس:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسوله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]: أي العدل فما من

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 209.

(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 82.

كتاب أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل وأوجه عليها، والأمم بين طائع أخذ منه بنصيب وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسول ما تزال تجدد ما نسيت الأجيال، وتذكر الناس بما نسوا إلى أن ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء محمد ﷺ، ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبى ﷺ خاتم الأنبياء والرسول، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فقد كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم، ولم يكتف الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خلقاً من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تصبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكون قائمة بالعدل بل قوامه به بين الناس، لله ﷻ، لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريباً لقربته ولا تضار عدواً لعداوته.

قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَلِغٌ لِّلَّذِينَ هُمْ حَيْرٌ يٰمَنْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

فالعدل الذي أمر به الله ﷻ في القرآن الكريم حق لكل الناس جميع الناس، لا عدل بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان

بوصفه «إنسان» فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة التي يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداء، سوداً وبيضاً عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت أمرهم⁽¹⁾ فالعدل من مقاصد القرآن الكريم - وأوجبه الله على المؤمنين به ولو كان مراغمة لعواطف البغض والعداوة، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وهو كذلك واجب ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرباة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله ﷻ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء بدون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرباة، أو البغضاء والشنآن والعداوة، لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله، والعدل بهذه الصورة الشاملة، لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة⁽²⁾.

سابعاً: الشورى:

من مقاصد القرآن الكريم تحقيق ممارسة الشورى بين الناس:

1 - قال تعالى: ﴿هَمَّا أُوْتِيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَلَّعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ

(1) انظر: ظلال القرآن (414/2).

(2) الوسطية في القرآن الكريم، للصلابي، ص: 94.

خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ [الشورى: 36 - 38].

وهناك دلالات لطيفة لقيمة الشورى في الإسلام، في ضوء تفسير هذه الآية منها ما يلي:

فالأية وردت في سورة تحمل اسم الشورى وهي «سورة الشورى»، وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بأهميتها ومنزلتها.

وجاءت الشورى في هذه الآية وصفاً تقريرياً، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين، فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الآثام والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم ويزكون أموالهم وينفقون منها في سبيل الله⁽¹⁾.

وهي آية مكية مما يدل على أن الشورى في الإسلام ممارسة اجتماعية قبل أن تكون من الأحكام السلطانية، وهي تصف حال المسلمين في كل زمان ومكان، فهي ليست طارئة ولا مرحلية، ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أئمن خصال المؤمنين وصفاتهم.

وهي تجعل جميع المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي، شورى بينهم، فهي حق لهم جميعاً؛ إلا ما كان من شأن أهل العلم والتخصص، فإن المؤمنين يحملهم إيمانهم أن يردوا ما أشكل عليهم

(1) الشورى في معركة البناء، ص: 21، أحمد الرسوني.

إلى من يعلم كيف يستنبط الأحكام من النصوص (1).

وقد انتبه عدد من العلماء إلى وقوع هذه الآية الكريمة ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، كصفة من ضمن صفات تعدد من المقومات والأركان الأساسية في الدين، وهو ما يعني أنها واحدة من تلك الفرائض والأركان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدل على جلاله موقع المشورة لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة ويدل على أنهم مأمورون بها.

2 - وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

وهذه الآية جاءت خطاباً لرسول الله ﷺ بصفته داعياً وهادياً ومرشداً ومربياً، وأميراً وقائداً وهذا ما يقتضيه أن يكون رقيقاً بالناس متلطفاً معهم رحيماً لهم عفواً عنهم، متسامحاً معهم، بل مستغفراً لهم في أخطائهم وذنوبهم ومستشيراً لهم مراعيّاً لأرائهم، وهذا الأمر لرسول الله ﷺ من الله بمشاورة أصحابه هو أمر لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء، بل إن العلماء والمفسرين يعتبرون أن هؤلاء مأمورون من باب أولى وأحرى، فهم الأحوج إلى هذا الأمر وبفارق كبير جداً عن رسول الله، ومن هنا عُدت هذه الآية قاعدة

(1) الشورى مراجعات في الفقه والسياسة، د. أحمد الإمام، ص: 15.

كبرى في الحكم والإمارة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين - وأهل التخصص في فنون العلوم - فعزله واجب وهذا ما لا خلاف فيه⁽¹⁾.

إن الشورى مقصد من المقاصد الإسلامية، وجزء من الشريعة الإسلامية.

ثامناً: الحرية:

من مقاصد القرآن الكريم، إبطال عبودية البشر للبشر وتعميم الحرية، لكل الناس ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارع متشوف للحرية، فذلك استقراؤه من تصرفات الشريعة التي دلت على أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأب الشريعة في رعي المصالح المشتركة وحفظ النظام العام وقف بها عن إبطال العبودية بوجه عام وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربطة العبودية، وإبطال أسباب تجدد العبودية، مع أن ذلك يخدم مقصدها، كان ذلك التوقف من أجل أن نظام المجتمعات في كل قطر قائم على نظام الرق، فكان العبيد عمال في الحقول، وخدمة في المنازل والغروس، ورعاة في الأنعام. وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، ودايات لأبنائهم، فكان الرقيق «لذلك» من أكبر الجماعات التي أقيم عليها النظام العائلي والاقتصادي «والاجتماعي» لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأساً على عقب لا نفرط عقدُ

(1) الشورى فريضة إسلامية، للصلابي، ص: 24.

نظام المدينة انفرطاً تعسر معه عودة انتظامه، فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق من وقع في أسرها وخضع إلى قوتها وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم وبتنشر أتباعه في الأقطار، فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبل أمنت عواقب الحروب الإسلامية - وأخطرت تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبي - لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة الإسلامية اتكالاً على الكثرة والقوة، وأمناً من وصمة الأسر والاستعباد⁽¹⁾، كما قال صفوان ابن أمية في مثله: لأن تربني قريش خير من أن تربني هوازن.

وكما قال النابغة:

حذاراً على أن لا تنال مقادتي ولا نسوتي حتى يمتن حرائراً⁽²⁾

فنظر الإسلام إلى طريق بين مقصدي - نشر الحرية وحفظ نظام العالم - بأن سلط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها لتقليلها وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق وقصره على سبب الأسر خاصة، فأبطل الاسترقاق الاختياري وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعض أبنائها، وقد كان ذلك شائعاً في

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ محمد الطاهر، ص: 392.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص: 393.

الشرائع، وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية بأن يحكم على الجاني ببقائه عبداً للمجني عليه، وقد حكى القرآن عن حالة مصر: ﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: 75].

وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: 76].

وأبطل الاسترقاق في الدين الذي كان شرعاً للرومان، وكان أيضاً من شريعة سولون في اليونان من قبل، وأبطل الاسترقاق في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين، وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارة يوسف إذ وجدوه.

ثم إن الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود والذي يوجد بروافع ترفع ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف آثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكة معنئاً⁽¹⁾.

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحتها الإسلام:

1 - جعل الإسلام تحرير الأرقاء إلى الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12].

2 - كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين، أو تحرير رقبة.

3 - كفارة الظهر لمن أراد أن يرجع زوجته بدايته تحرير رقبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ

(1) مقاصد الشريعة، ص: 393.

رَقَبَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَو تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾
[المجادلة: 3].

4 - من أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة منها تحرير رقبة.
5 - ملك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمى «أم ولد» إذا مات سيدها قبلها صارت حرة.

6 - المكاتبه: أن يتفق العبد مع سيده على مبلغ من المال يدفعه أو يقوم بعمل يصير بعده حراً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ بِيْكَامًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِلْبَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

7 - العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرر واحد منهم نصيبه امتنع أن يباع العبد.

8 - تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْعَجِلِينَ عَلِيًّا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

لقد انقراض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحتها الإسلام ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات كما رأينا⁽¹⁾.

(1) حقوق الإنسان في الإسلام، د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري،

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية بأن ترفع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنما بأسلوب أرقى وهو كلمة غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، قال ﷺ: «لا يقولون أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي»⁽¹⁾.

وقد نهى النبي ﷺ عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: «لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه»، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم، ففي حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «عبيدكم حَوْلَكُمْ إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس»⁽²⁾ ونهى عن ضربهم الضرب الخارج عن الحد اللازم، فإذا مثل الرجل بعبده عتق عليه»⁽³⁾.

فمن استقراء هذه التصرفات ونحوها حصل لنا بأن الشريعة قاصدة بث الحرية والقضاء على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده، ترك الخيار لكافة الناس في اختيار المعتقد بعد تبين الرشد من الغي، وترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير، وإليك الشرح:

1 - حرية الاعتقادات: أسسها الإسلام بإبطال المعتقدات الضالة التي أكره دعاة الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها بدون فهم ولا هدى، ولا كتاب منير، وبالذعاء إلى إقامة البراهين على

(1) البخاري رقم 2552، مسلم رقم 2249.

(2) مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، ص: 395.

(3) المصدر نفسه ص: 395.

العقيدة الحقّة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردهم إلى الحق بالكلمة والموعظة وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:

[256].

ولو أراد الخالق جلت قدرته لدخل جميع من على الأرض من الناس دين الإسلام، ولكن له حكمة في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

ولا شك أن الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادر على التمييز بين الحق والباطل حتى يستطيع اختيار الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٣١﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإنسان: 2 - 3].

وتكرر الآيات القرآنية في أكثر من سورة حول حرية الاعتقاد وعدم إجبار من لم يقتنع بالإسلام على اعتناقه، فيخاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107].

- وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَانٌ﴾ [الشورى: 48].

(1) مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، ص: 396.

- وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: 21 - 22].

- وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

والدين الإسلامي الحنيف ليس دين قمع وإكراه، بل دين يسر يقوم على مبدأ وسائل الإقناع والتزام جادة العقل من خلال منهج الحوار البناء والتعبير الحر والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش البعيد عن المهارات وإثارة الفتن، والشريعة الإسلامية تشدد وتؤكد على قدسية هذا المنهج، لذا نجد أن الخالق يأمر رسوله محمداً ﷺ بأن يدعو الناس إلى دين الإسلام بالحكمة ويخاطبه قائلاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

- وفي مجادلة أهل الكتاب يقول مخاطباً المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46]⁽¹⁾.

2 - حرية التعبير: «الأقوال»: فهي التصريح بالرأي والاعتقاد في منطقة الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

- وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. صالح عبد الله الراجحي، ص: 111.

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿آل عمران: 110﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71].

وقال تعالى: ﴿يَبْتَغِي أَمِيرٌ آلَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عده مما لا فائدة منه، أو مما فيه مضرة في الدين أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم، وقد حدّد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام، وأدابه تحديداً دقيقاً، وواضحاً نجمل شيئاً منه فيما يلي:

1 - الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤَلُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

2 - الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

3 - الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

4 - الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَىٰ

الرَّسُولِ وَالَّذِي أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ [النساء: 83].

والآية الأخيرة: إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»⁽¹⁾، وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ: نهى عن قيل وقال⁽²⁾، الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبيت، ولا تدبر، ولا تبين⁽³⁾.

5 - كما حرم الله ورسوله الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة⁽⁴⁾.

حرية الفكر:

لم يترك القرآن الكريم أسلوباً نفسياً أو واقعياً إلا واتبعه من أجل حث الإنسان على التفكير واستعمال عقله بصورة واضحة جلية، وإليك أخي القارئ الكريم البيان:

أ - طلب القرآن الكريم من الناس أن يستعملوا عقولهم ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات في الإيمان ورسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَّ وَفِرْدَى ثُمَّ تَنفَكُوا﴾ [سبا: 46].

(1) صحيح مسلم رقم 7 (31/1).

(2) صحيح مسلم رقم 4458.

(3) تفسير ابن كثير (529/1)، حرية التعبير، محمد بن محمد الخرعان، ص: 45.

(4) حرية التعبير، د. محمد الخرعان، ص: 46.

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول يقول تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50].

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

وفي إشعار الإنسان بأن هذا الكون كله خلق لارتفاقه ويسر بره وبحره وعلوه وسفله له⁽¹⁾، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13].

ب - طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أن هنالك سبباً، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون الذي ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات وما حوته، وفي الأرض وما عليها، يقول تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

(1) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، ص: 80

- 71، حقوق الإنسان، د. هاني الطعيمات، ص: 154.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: 8].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: 17 - 20].

وفي النظر في أصل نشأة الإنسان وخلقها يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 - 7].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77].

ج - وحتى يحفز القرآن الكريم العقل الإنساني للتفكير هاجم الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلهم كالدواب، ذلك أن العقل الإنساني ومملكة التفكير هي التي تميز الإنسان من الحيوان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَمَنْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾ [الأعراف: 179].

د - نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقف بوجه العقل الإنساني والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد واستقلالته الفكرية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ سِينًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثِرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف: 22 - 23].

فالمترفون عادة لا يريدون التفكير في الأسس الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية لأنهم طبقة مستفيدة من الوضع القائم، فهي لا تريد حتى التفكير في وضع جديد⁽¹⁾.

كما نبه القرآن الكريم إلى عائق آخر ذو تأثير عملي، فقال وهو الطاعة العمياء بلا فكر لأصحاب الجاه والسلطان قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: 67].

2 - واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشط العملية الفكرية، وليخلق ملكة المقارنة ويطور المقدرة على التفكير بشكل صحيح⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: 16].

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص: 155.

(2) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص: 155.

كَشَجَرَةٍ طَبِيئَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُوِّتْ أَكْثَلَهَا كُلُّ
 حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَثَلُ
 كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
 ﴿١٦﴾ [إبراهيم: 24 - 26].

- وأفرد القرآن الكريم مكانة خاصة للذين يفكرون ويتعمقون في التفكير ويصبح تفكيرهم علماً نافعاً للإنسان في هذه الحياة، وميزهم عن غيرهم وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدمة من كيفية طلب التفكير وضرورته واحترام العقل الإنساني ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال ﷺ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

وبهذا يكون المنهج القرآني وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات وليس فيها جمود ولا تقليد وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني وتحريره من ربة البلاد والخمول وتنبئيه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير⁽¹⁾.

ولقد ظهرت حرية العلم والتعليم والتأليف والتفكير في أجمل مظهر في القرون الثلاث الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماء فتاواهم ومذاهبهم وعلمهم واحتج كل فريق لرأيه، ولم يكن ذلك موجباً للمناوأة ولا لحزازات، وقد قال رسول الله ﷺ: «نُضِرَّ اللَّهُ

(1) حقوق الإنسان وحرياته، ص: 156.

امرىء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فربّ حامل فقه إلى ما هو أفقه منه، وربّ حامل فقه إلى ما ليس بفقيه⁽¹⁾.

وهذا هو المقام الذي تحقق فيه مالك بن أنس حين قال له أبو جعفر الخليفة: إني عزمت أن أكتب كتبك «يعني الموطأ» نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار نسخة، وأمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها.

فقال الإمام: لا تفعل يا أمير فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله وغيرهم وإن ردهم عن ذلك شديد، فدع الناس وما هم عليه⁽²⁾.

4 - حرية التنقل: كفل الإسلام حرية التنقل لكل فرد حسبما يريد سواء كان ذلك داخل حدود الدولة الإسلامية أم سفر إلى خارجها، ويمكن إجمال صور التنقل فيما يلي:

أ - التنقل لتحقيق نفع ديني وديني:

وذلك مثل التنقل طلباً للرزق بالطرق المشروعة، من تجارة وغيرها، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

ومن مثل التنقل طلباً للعلم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ

(1) مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، ص: 397.

(2) المصدر نفسه، ص: 397.

فَرَقَهُ مِنَّمِ طَائِفَةٍ لِّيَسْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿ [التوبة: 122].

ومن مثل السفر بقصد زيارة الأرحام والأخوان في الله وبقصد زيارة البقاع الشريفة كمكة والمدينة، ومن مثل السفر بقصد الترويح عن النفس وعن الوجه المشروع، فالسياحة مباحة لأنها تفتح العين والقلب على المشاهدة الجديدة التي لم تألفها العين، ولا يملها القلب، بل قد تكون السياحة مندوباً إليها، إذا كانت على سبيل التدبر والاعتبار، ومعرفة سنن الله تعالى في الأمم السالفة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام: 11].

ب - التنقل لأداء واجب ديني:

كالسفر لأداء فريضة الحج أو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: 27].

وقال تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

وهذا خطاب للمؤمنين، وعقب ذلك أنزل الله تعالى في شأن المنافقين قوله: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسَظَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: 42].

أي لو كان ما دعوتهم إليه من الخروج في سبيل الله سفراً

وسطاً، ومتاعاً من الدنيا سهل المأخذ، لاتبعوك وخرجوا معك طلباً للغنيمة⁽¹⁾.

ج - الهجرة حفاظاً على سلامة العقيدة:

أوجب الإسلام الهجرة على كل مسلم تعرض للذل أو المهانة أو خاف أن يفتن في دينه، ووصف الذين يتقاعسون عن الهجرة مع استطاعتهم لها بأنهم من الظالمين لأنفسهم، ولم يستثن من ذلك إلا الفئة العاجزة فعلاً عن الهجرة من كبار السن والنساء والولدان، وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِجَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: 97-98]⁽²⁾.

إن الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدرها حق قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو حرية التعبير، أو حرية الفكر، أو حرية التنقل، وجعل الحرية مقصد من مقاصده.

تاسعاً: رفع الحرج:

إن من مقاصد القرآن الكريم رفع الحرج عن المكلفين، ووردت آيات كثيرة جداً تبين أن هذا الدين دين يسر، وأن الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلفها إلا وسعها، وسأبين أدلة التيسير، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلة عدم

(1) حقوق الإنسان وحياته الأساسية، ص: 140.

(2) المصدر نفسه، ص: 140.

التكليف بغير الوسع والطاقة .

1 - أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾

[البقرة: 185].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وقال ﷺ: ﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: 8].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾

[الشرح: 5 - 6].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة .

وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم في هذه الآيات أن الله أراد

لهذه الأمة اليسر ولم يرد لها العسر⁽¹⁾.

2 - أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج وله تعالى: ﴿وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي: ما كلفكم ما لا

(1) تفسير الطبري (2/156)، تفسير ابن كثير (1/217).

تطبيقون وما ألزمتكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً⁽¹⁾.

وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].
وفي سورة التوبة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: 38].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: 61].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجد التعليل عاماً، فكأن التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة⁽²⁾.

3 - أدلة عدم التكليف بما يضاعف الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

(1) تفسير الطبري (17/207).

(2) الوسطية في ضوء القرآن، د. ناصر العمر، ص: 106.

وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: «قد فعلت»⁽¹⁾.
وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286].
والوسع: ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه أو يخرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات، وصيام أكثر من شهر، ولكن الله جلت قدرته ووسعت رحمته أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر⁽²⁾.

ومن الأدلة على أن التكليف بحدود الوسع والطاقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42].
ويقول سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: 62].

فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النصوص إلى وسعها، وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 232].

(1) مسلم، كتاب الإيمان رقم 126 (1/116).

(2) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، ص: 73.

وكذلك في سورة الطلاق: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وكذلك أيضاً في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمْرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152].

هذه هي الآيات التي وردت مبينة أن التكليف بحسب الوسع والطاقة، وتبين أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم.

عاشراً: تقرير كرامة الإنسان:

يظهر التكريم الإلهي للإنسان في عدة أمور، منها:

1 - الإنسان خليفة في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

2 - الإنسان محور الرسالات السماوية:

إن الإنسان هو المقصود غاية وهدفاً في ابتعاث الرسل واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصحف وإن الله ﷻ الذي جعل آدم خليفة في الأرض، اقتضت حكمته، ومشيتته ورحمته بالإنسان ألا يخلقه عبثاً، وألا يتركه سدى، وإنما تكفل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده

إلى الطريق الأقوم والمنهج الأمثل وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان ولن يتركه نهياً للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد والتي هي أقوم⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 123-124].

وهكذا توالى الرسل وتتابع الأنبياء، وأنزلت الكتب، وكلها تدور على محور واحد، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمين مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودفع المضار عنهم، فترشداهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشف لهم طريق الخير، وتحذرهم من الغوايا والشر⁽²⁾.

وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفساد وتعطيلها⁽³⁾.

(1) حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي، ص: 21.

(2) حقوق الإنسان، للزحيلي ص: 22.

(3) مجموع الفتاوى (48/20).

إن الأحكام الشرعية، إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد⁽¹⁾.

3 - تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي باختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملائكة الأعلى بإرادته عن خلق آدم، واتخاذ خليفة وسجل ذلك في اللوح المحفوظ وأنزله وحياً يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً واحتراماً له، لأن الإرادة والإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 71 - 74].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر: 28-31].

وكرر القرآن الكريم هذا الأمر، وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير الإنسان بفضل الله تعالى أولاً، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانياً وليحذره من غواية إبليس ثالثاً⁽²⁾.

(1) الموافقات، للشاطبي (1/195).

(2) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 28.

4 - تفضيل الإنسان عن سائر المخلوقات :

صرح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

5 - تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: 20].

وصرح القرآن الكريم بأن الله تعالى خلق الأنعام، وملكها للإنسان، ثم ذللها له للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعُفٌ وَمَسَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: 71 - 72].

ووجه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خواصه وأسراره، والانتفاع به في الحياة، فقال تعالى عن الثروة المائية: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: 14].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعُفٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

سَرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَمْثَالَكُمْ إِنْ بَدَلْتُمْ بَدَلْتُمْ تَكُونُوا بِلَيْبِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [النحل: 5 - 8].

وقال تعالى عن الثروة الصناعية: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرُفُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبا: 10 - 11].

6 - تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرع عنه التفكير، والإرادة والاختيار، وكسب العلوم، لذلك كان الإنسان مسؤولاً عما يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

وعدّ القرآن الكريم الإنساني الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان، لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطّلها عما خلقت له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقلُونَ﴾ [الأنفال: 22].

وقد تعددت الآيات القرآنية صراحة وإشارة في مخاطبة العقل ودعوته للتفكير، والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190 - 191].

وقال تعالى: ﴿وَمِن مَّا آتَيْنَاهُ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِن
السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ
وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن
السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِن أَعْنَابٍ وَزَّرَعٌ
وَنَجِيلٌ صِنَوَانٌ وَعِزْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي
الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4].

وآيات كثيرة تثير العقل، وتحثه، وتؤدي بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنه الخالق المدبر، وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنهم لا يعقلون وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات

الكون التي تنطق بوجود الله تعالى، وتوجب طاعته، وعندئذ ينسلخ الكافر من إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ۝١٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝١٤﴾ [الفرقان: 43 - 44].

7 - تكريم الإنسان بالأخلاق والفضائل:

تظهر كرامة الإنسان والدعوة إلى تكريمه بدعوة الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، وترغيب الفرد والمجتمع بمعالي الأمور والتسامي عن المادة، والحض على الخير والفضيلة بين الناس⁽²⁾، لذلك وصف القرآن الكريم نبيه محمداً ﷺ بأعلى أوسمة الفخار والثناء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وبين ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽³⁾.

فدعا الإسلام الناس جميعاً إلى البر والرحمة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والوفاق، والصدق، والإحسان ووفاء الوعد، وأداء الأمانة وتطهير القلب، وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والمسامحة والعفو، والمغفرة والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث على النصيحة وغير ذلك

(1) حقوق الإنسان في الإسلام، للزحيلي، ص: 54.

(2) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 64.

(3) سنن البيهقي (192/10)، البخاري، كتاب الأدب الموطأ، ص: 564.

من مكارم الأخلاق والفضائل⁽¹⁾، والأخلاق الفاضلة تزين الإنسانية وتُعَلِّي شأنها، وتُنسِق بين أفرادها وتصون العلاقات الجماعية، وتوجيهها إلى الخير والكمال، لتصور الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنب الرذيلة، والفساد الخُلُقِي والاجتماعي⁽²⁾.

8 - تكريم الإنسان في تشريع الأحكام:

وهذا باب واسع يُغطي جميع الأحكام الشرعية، ويدفع لمعرفة العلة فيها والحكمة من تشريعها، ولذلك نضرب بعض الأمثلة فقط كمنادج:

أ - وجود الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَمِن مَّآئَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

﴿مِن أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: جنسكم ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: تأنسوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضامن والتعاون ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: تواداً وتراحماً بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة⁽³⁾.

(1) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 64.

(2) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 66.

(3) محاسن التأويل للقاسمي (4772 / 13).

ب - حقوق الأولاد:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاْ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: 6].

أمر الله ﷻ في هذه الآية: بأن يقي المؤمنون أنفسهم النار بأفعالهم، وأهلهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد وهذا يتطلب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي ومراقبتهم المستمرة في ذلك⁽¹⁾.

ج - احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

ومن ذلك إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبين الحكمة والغاية من ذلك:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَآ أَجَلٍ مُّسَكًّى فَآكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ ءَالْمَكْدَلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فليَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: 282].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282].

ثم بين تعالى الحكمة والغاية، فقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا

(1) التفسير المنير، للزحيلي (28/316 - 320).

بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا ﴿ [البقرة: 282].

كما أن الله حرّم الغشّ والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب حقوقهم، لأن ذلك يخل بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

وقال تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: 29].

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساساً في التعاقد، والتعامل حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»⁽¹⁾، وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان، والإكراه، لأن الإرادة مفقودة حقيقة في هذه الحالات، كما حرّم الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه⁽²⁾.

د - العقوبات:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179].

(1) حقوق الإنسان، ص: 72.

(2) الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الكبير، للسيوطي نقلاً عن حقوق الإنسان، ص: 72.

لقد حرص المشرع الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصده حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعي الكرامة الإنسانية، فنصّ على الأشياء الممنوعة والمحرمة، وحذر منها ورهب من ارتكابها، فإن حصل الخلل، ووقع الخطأ، أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسب للجريمة بما لا يمس كرامة الإنسان فشرع القصاص ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديباً، وإصلاحاً وزجراً وردعاً⁽¹⁾.

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلة كثيرة في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته، والتحقيق معه، أم في محاكمته وتأمين حقوقه الإنسانية ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه أم في معاقبته وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره⁽²⁾.

وبعد:

فإن جميع الأحكام الشرعية مُراعى فيها الناحية الإنسانية، لأنها ما شرعت أصلاً إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغراء راعت إنسانية الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، ومواراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت أو إيذائه بكلمة، أو غيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي

(1) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 73.

(2) المصدر نفسه، ص: 74.

أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من معنى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام.

كما يتجلى لنا التكريم الإلهي للإنسان في كل صغيرة وكبيرة وفي جميع شؤون الحياة وأطوار الإنسان، ليكون المكرّم، والمفضّل، والمقدّم عند الله، والخليفة في الأرض⁽¹⁾.

الحادي عشر: تقرير حقوق الإنسان:

من مقاصد القرآن الكريم تقرير حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم أو قرار صادر عن سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل ولا يسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها⁽²⁾، ومن هذه الحقوق:

1 - حق الحياة:

حياة الإنسان مقدسة لا يجوز لأحد أن يعتدي عليها، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

ولا تسلب هذه القدسية إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها، وكيان الإنسان المادي والمعنوي حمى، تحميه الشريعة في حياته، وبعد مماته ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه⁽³⁾.

(1) حقوق الإنسان، للزحيلي، ص: 78.

(2) حقوق الإنسان، رواية أحمد، ص: 174.

(3) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام، محمد الغزالي، ص: 174.

2 - حق الحرية:

حرية الإنسان مقدسة - كحياته سواء - وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان وقد بينا أن من مقاصد الشريعة الحرية وتحديثنا عن أنواعها، كحرية المعتقدات، وحرية التعبير، وحرية الفكر، وحرية التنقل.

ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرها، ولا يجوز لشعب أن يعتدي على حرية شعب آخر، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان ويسترد حريته بكل السبل الممكنة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41].

وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته ويتحمل المسلمون في هذا واجباً ولا ترخص فيه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: 41].

3 - حق المساواة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

- الناس جميعاً سواسية أمام الشريعة، قال رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على

أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»⁽¹⁾، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»⁽²⁾.

- الناس كلهم في القيمة الإنسانية سواء، قال رسول الله ﷺ: «كلكم لأدم وأدم من تراب»⁽³⁾، وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: 19].

وكل فكر وكل تشريع، وكل وضع يسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام⁽⁴⁾.

- لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا﴾ [الملك: 15]، ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كما وكيفاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

4 - حق العدالة:

- من حق كل فرد أن يتحاكم إلى الشريعة وأن يتحاكم إليها دون سواها، قال تعالى: ﴿فَإِن نُّنزِعْنَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَكَارِهِونَ إِلَّا لِقَاءِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

(1) مسند الإمام أحمد (5/411).

(2) مسلم، كتاب الحدود (3/1315).

(3) من خطبة حجة الوداع، حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 175.

(4) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 175.

وقال تعالى: ﴿وَأَن أَعْلَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 49].

- ومن حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم، قال تعالى: ﴿لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: 148]، ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك.

- ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتنصفه وتدفع عنه، ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيديتها واستقلالها⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْلَمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

وقال تعالى: ﴿بَدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فُضِّلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

5 - حق الفرد في محاكمة عادلة:

البراءة هي الأصل، وهو مستصحب ومستمر حتى مع اتهام الشخص ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية، ولا تجريم إلا بنص، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

ولا يحكم بتجريم شخص، ولا يعاقب على جرم إلا بعد ثبوت

(1) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 175.

ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة، قال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَىٰ فَتَّبِعُوهُ﴾ [الحجرات: 6]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28].

ولا يجوز - بحال - تجاوز العقوبة التي قدرتها الشريعة للجريمة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229].

ولا يؤخذ إنسان بجريمة غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15]، وكل إنسان مستقل بمسؤوليته عن أفعاله، قال تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21].

ولا يجوز بحال أن تمتد المسألة إلى ذويه من أهل وأقارب أو أتباع وأصدقاء، قال تعالى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ عِنْدَهُ بِإِنَّا إِذَا أَفْلَحْنَا﴾ [يوسف: 79] (1).

6 - حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فرد الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه، ولا توجيه اتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيَرٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 158].

7 - حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا

(1) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 176.

أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴿ [الحجرات: 11].

عرض الفرد وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها، قال رسول الله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومك هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»⁽¹⁾.

ويحرم تتبع عوراته ومحاولة النيل من شخصيته وكيانه الأدبي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿ [الحجرات: 12].

8 - حق اللجوء:

من حق كل مسلم مضطهد أو مظلوم أن يلجأ إلى حيث يأمن، في نطاق دار الإسلام وهو حق يكفله الإسلام لكل مضطهد، أيا كانت جنسيته أو عقيدته، أو لونه ويحمل المسلمون واجب توفير الأمان له متى لجأ إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴿ [التوبة: 6].

وبيت الله الحرام - بمكة المشرفة - هو مثابة وأمن للناس جميعاً لا يصد عنه مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿ [آل عمران: 97]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴿ [البقرة: 25]⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم، رقم 889.

(2) حقوق الإنسان، محمد الغزالي، ص: 177.

9 - حقوق الأقليات:

الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

والأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات، تحكمها شريعة الإسلام إن هم يتحاكموا إلينا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي - عندهم - لأصل إلهي: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [المائدة: 43].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: 47].

10 - حق المشاركة في الحياة العامة:

من حق كل فرد في الأمة أن يعلم بما يجري في حياتها، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة وعليه أن يسهم فيها بقدر ما تتبع له قدرته ومواهبه إعمالاً لمبدأ الشورى، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 28]، وكل فرد في الأمة أهل لتولي المناصب، والوظائف العامة، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية، ولا تسقط هذه الأهلية أو تنقص تحت أي اعتبار عنصري أو طبقي، قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»⁽¹⁾.

(1) صحيح سنن أبي داود، الألباني (2، 525).

والشورى أساس العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكامها بإرادتها الحرة، تطبيقاً لهذا المبدأ، ولها الحق في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا من الشريعة، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم)⁽¹⁾.

11 - حق الدعوة والبلاغ:

لكل فرد الحق أن يشارك مع غيره أو منفرداً في حياة المجتمع: دينياً واجتماعياً، وثقافياً وسياسياً... إلخ وأن ينشئ من المؤسسات، ويصنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108].

من الحق لكل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيء للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاوناً على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104]⁽²⁾، وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح، قرره القرآن بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا

(1) التاريخ الإسلامي، عبد العزيز الحميدي، (28/9) الشورى فريضة إسلامية، للصلاحي، ص: 56.

(2) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 179.

إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن آوِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿ [هود: 13].

- قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: 78-79]، كيف لا وقد قيد الله الطاعة للرسول نفسه بالمعروف، فقال في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: 12]. وقال على لسان نبي الله صالح: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: 151 - 152].

بل إن الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات لأن ما كان من الحقوق يمكن لصاحبه أن يتنازل عنه، أما الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازل عنها⁽¹⁾.

12 - الحقوق الاقتصادية:

الطبيعة - بثرواتها جميعاً - ملك لله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 120]، وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13].

وحرم عليهم إفسادها وتدميرها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: 183].

(1) كيف تتعامل مع القرآن العظيم، ص: 74.

ولا يجوز لأحد أن يجرم آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

فلكل إنسان الحق في العمل والمشي في مناكب الأرض سعياً لكسب رزقه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

حتى في يوم الجمعة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

وفي الحج قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

ولكل إنسان الحق في أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك، رجلاً كان أو امرأة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]⁽¹⁾.

13 - حق حماية الملكية:

لا يجوز انتزاع ملكية، نشأت عن كسب حلال، إلا للمصلحة العامة قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188].

ومع تعويض عادل لصاحبها، قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»⁽²⁾. وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 72.

(2) صحيح البخاري، كتاب المظالم (115/2).

أشد، لأنه عدوان على المجتمع كله وخيانة للأمة بأسرها، قال رسول الله ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً، فما أخذ بعد ذلك فهو غلوه»⁽¹⁾.

14 - حق العامل:

العمل: شعار رفعه الإسلام لمجتمعه، قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ [التوبة: 105].

وإذا كان حق العمل الإتقان، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»⁽²⁾.

- فإن حق العامل:

- أن يوفي أجره المكافي لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له، قال رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»⁽³⁾.

- أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.

- أن يمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له، قال

تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

- أن يجد الحماية، التي تحول دون غبنه واستغلال ظروفه⁽⁴⁾.

15 - حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة، من طعام

(1) صحيح سنن أبي داود (230/2).

(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني رقم 1880.

(3) صحيح سنن ابن ماجه للألباني (59/2).

(4) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 181.

وشراب، وملبس ومسكن.. ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله من علم ومعرفة وثقافة في نطاق ما تسمح به موارد الأمة ويمتد واجب الأمة ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل هو بتوفيره لنفسه من ذلك⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. وقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»⁽²⁾.

قال ابن حزم تعليقاً على هذا الحديث: من تركه يجوع ويعري وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه⁽³⁾. إن الأخوة ليست مجرد عاطفة، ولكنها عقد تكافل وتعاون وتأزر وهو عقد طرفه الأساسي الأمة ممثلة في مستويات مترتبة تبدأ بالأسرة حيث أوجب على أفرادها التكافل في الإرث والوصية والنفقة، قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75].

ثم الجيرة: قال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]، ثم يأتي أهل الحي ثم المجتمع كله عن طريق الزكاة وهي فريضة ملزمة ثم النفقة التطوعية⁽⁴⁾.

16 - تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن الكريم حقوق الإنسان عامة، ولكنه عني عناية فائقة

(1) حقوق الإنسان، للغزالي، ص: 182.

(2) البخاري (250/1) ورواه مسلم.

(3) المحلي، نقلاً عن الحريات للغنوشي (108/1).

(4) الحريات في الدولة الإسلامية (109/1).

بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة خفية أن يجور عليهم الأقوياء، أو يهمل أمرهم الحكام والمسؤولون، نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن الكريم مكية ومدنية، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا آلِيَّتِي فَلَا فَعَهْرَ﴾ [الضحى: 9]، وفي سورة المدثر يتحدث عن المجرمين في سقر وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٢﴾ وَلَوْ نَكُنْ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٣﴾ [المدثر: 42 - 44]، وهاتان السورتان - الضحى والمدثر - من أوائل ما نزل. وفي سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ آلِيَّتَهُ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ [الماعون: 1 - 3].

فلم يكتف بإيجاب إطعام المسكين بل أوجب الحض على ذلك والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة، علل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ [الحاقة: 33 - 34]، فقرن الحض على الإيمان أو قرن ترك الحض بالكفر بالله تعالى، وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَ آلِيَّتَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَلَا تَخْضُوتُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ [الفجر: 17 - 18].

وأمر بالمحافظة على مال اليتيم - إن كان له مال - إذ جعل ذلك من وصاياها العشر في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: 152]، وكرر هذه الوصية في [الإسراء: 34].

وفي سورة النساء وضع القواعد للمحافظة على مال اليتيم وحسن استغلاله وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيد شديد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]⁽¹⁾.

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظاً في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَىٰ فَلُوهُمُ فِي الرِّقَابِ وَالْفَدْرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60].

وقال تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة لأن الله أمر ولي الأمر بأخذها، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

فإذا لم تتول الدولة أخذها، كان على أرباب الأموال أداؤها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقاً في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ بَلِ الْبِرُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ

(1) كيف تتعامل مع القرآن العظيم، ص: 75.

مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴿البقرة: 177﴾.

قال تعالى: ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا وَلَا أُخْفِيهِمْ وَلَا أَجْرًا وَلَا يُسْأَلُونَ عَنِّي فِي سُبُلِ اللَّهِ قُلْ اللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنِينَ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَرِهَتِ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ﴾ [البقرة: 215].

وأهم من ذلك كله: أن القرآن شرع القتال وسل السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرص أبلغ التحريض على القتال ذوداً عن حرماتهم، ودرءاً للظلم عنهم، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُتِقَاتِلْ أَوْ يُغَلَبْ فَمَا كُنْ لَكُمْ لَاحِظُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: 74 - 75].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن للإنسان ولا نقول: أعلنها، إذ كان الأمر أكبر من إعلان، إنه بلاغ من رب الناس للناس، أسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به حضارة وتاريخ⁽¹⁾.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 76.

الثاني عشر: تكوين الأسرة الصالحة:

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن الكريم، تكوين الأسرة الصالحة، التي هي ركيزة المجتمع الصالح، ونواة الأمة الصالحة⁽¹⁾.

ولا ريب أن أساس تكوين الأسرة هو الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيق العرى، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان. وقد اعتبر القرآن هذا الزواج آية من آيات الله، مثل خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من تراب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: 21].

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن، وهي السكون، والمودة، والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله، فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة، منذ الأسرة البشرية الأولى من آدم وزوجه ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35].

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة «1994م» ومؤتمر المرأة في بكين أن

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 86.

يفرضاه على العالم⁽¹⁾.

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة «الرهبانية» المنافية للفطرة، التي تحرم الزواج، وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفّر من ظل المرأة، ولو كانت أختاً أو أمّاً، لأنها أحبولة الشيطان.

وثانيها: نزعة «الإباحية» التي تطلق العنان للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية وبنوة بازة، وأخوة عاطفة، وتترى في ظلها مشاعر المحبة وعواطف الإيثار والتعاون⁽²⁾.

استهدف الشارع عدة مقاصد من تكوين الأسرة منها:

1 - حفظ النسل:

وتحقيقاً لهذا المقصد قصر الإسلام الزواج المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى وحرّم كل صور اللقاء خارج الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعمير للأرض وتواصل للأجيال، قال الله جل شأنه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]⁽³⁾.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 86.

(2) المصدر نفسه ص: 87.

(3) ميثاق الأسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل، ص: 132.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَحِبُّوا لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَحَفَّةً﴾ [النحل: 72].

وكان من دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

وقال الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٣١﴾﴾ [الصافات: 100 - 101].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ بَرِيءٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 5 - 6].

فجاء الجواب الإلهي: ﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

2 - تحقيق السكن والمودة والرحمة:

وشرعت أحكاماً وآداباً بالمعاشرة بالمعروف بين الزوجين حتى لا تنحصر العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

والمعروف هنا ما يقره العرف السليم، واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الْوَسَايَا أَرْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس، لما توحى به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدفء، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، فلا خصومة ولا تناقض، بل تكامل وتناسق وتعاون⁽¹⁾.

3 - حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظام التبني وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال الله جل شأنه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي حَرْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥١﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْرَجُوهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 4 - 5].

وقال رسول الله ﷺ: «أبما رجل دعا إلى غير والديه، أو تولى غير مواليه الذين اعتقوه، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف⁽²⁾ ولا عدل⁽³⁾».

ولأجل حفظ النسب حرم الإسلام أيضاً الزنا، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده، وهي أحكام لها تفصيلها في مظانها من المراجع الفقهية⁽⁴⁾.

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 135.

(2) الصرف: الفريضة أو النافلة، وقيل التوبة.

(3) العدل: التوبة أو الفدية، حديث صحيح رواه أحمد والدارمي.

(4) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 137.

4 - الإحصان:

يوفر الزواج الشرعي صون العفاف، ويحقق الإحصان، ويحفظ الأعراس، ويسد ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال⁽¹⁾، وقد اختص الإسلام بمراعاته للفترة البشرية وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها والارتقاء بها لا كبثها وقمعها، قال الله جل شأنه: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَسَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَابِ﴾ [آل عمران: 14]، وهي شهوات مستحبة مستلذة لكنها يجب أن توضع في مكانها لا تتعدها ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى⁽²⁾.

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث وفي غير موضع الأذى وزمانه، قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْرِزُوا النَّسَاءَ فِي الْمَجِيضِ وَلَا تَفْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]⁽³⁾.

5 - حفظ التدين في الأسرة:

الأسرة هي محضن الأفراد، ولا برعاية أجسادهم فقط، بل

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 137.

(2) المصدر نفسه، ص: 138.

(3) كيف تتعامل مع القرآن العظيم، ص: 87.

الأهم غرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسؤولية الأسرة في هذا المجال قبل تكوّن الجنين بحسن اختيار كل من الزوجين إلى الآخر، وألوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنَآءٍ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه روجوه إلا نفعوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»⁽²⁾.

وتستمر مسؤولية الأسرة بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 32].

وقال جل شأنه عن النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 138.

(2) حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي، ميثاق الأسرة في

الإسلام، ص: 154.

(3) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 138.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6].

الثالث عشر: إنصاف المرأة وتحريمها من ظلم الجاهلية:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا: إنصاف المرأة وتحريمها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومن تحكّم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرم القرآن المرأة وأعطاهما حقوقها بوصفها إنساناً وكرمها بوصفها أنثى، وكرمها بوصفها بنتاً، وكرمها بوصفها زوجة، وكرمها أمّاً، وكرمها بوصفها عضواً في المجتمع⁽¹⁾.

لقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل، فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة، وأكد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف، والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنساناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنسانية، لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير⁽²⁾، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 89.

(2) ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص: 321.

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿ [النساء: 1].

وإذا كان الناس - كل الناس - رجالاً ونساءً، خلقهم ربهم من نفس واحدة وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها وتكمل بها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 2]، وبث في هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم واحدة، فالأخوة تجمعهم. ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله، ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1].

والرجل - بهذا النص - أخ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»⁽¹⁾.

1 - في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة: يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِتِينَ وَالصَّابِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

2 - في التكليف الدينية الاجتماعية الأساسية: يسوي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71].

(1) صحيح الجامع الصغير 2333، رواه أحمد وأبو داود، والترمذي عن عائشة.

3 - وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي: إليه وإلى زوجته سواء، قال تعالى: ﴿يَتَادَمُ أَشْكُنَ أَنْتَ وَرَوْجِكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

والجديد في هذه القصة - كما ذكرها القرآن - أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء - كما فعلت التوراة المحرفة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندم والتوبة منهما جميعاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 83].

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَتَسَوَّىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ أَكُنْ عَلَىٰ شَجَرَةٍ الْمَخْدُودِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلُغُ﴾ [طه: 12].

وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]، مما يفيد أنه الأصل في المعصية وامراته تبع له.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134].

4 - وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء: ودخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنَ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]، فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء كان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

5 - وفي الحقوق المالية للمرأة: أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عربياً وعجمياً - من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملك واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق التملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة، والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها، كالدفاع عن نفسها - بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة⁽¹⁾.

6 - المرأة باعتبارها أمّاً: لا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كَرَّم

(1) ملامح المجتمع المسلم، د. القرضاوي، ص: 324.

المرأة باعتبارها أمًا، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكد الوصية بها وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته، وجعل برّها من أصول الفضائل، كما جعل حقها وأكد من حق الأب لما تحمّلتها من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن ويكرره في أكثر من سورة ليثبت في أذهان الأبناء ونفوسهم وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: 14]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَضَّلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] (1).

ومن توجيهات القرآن الكريم: أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهات صالحات، كان لهن أثر ومكان في تاريخ الإيمان.

- فأم موسى تستجيب إلى وحي الله وإلهامه، وتلقي ولدها وفلذة كبدها في اليم، مطمئنة إلى وعد ربها قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاكْلِيهِ فِي آلِ يَسْرٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

- وأم مريم التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصة من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرهما قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنَّا أَنْتَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

- فلما كان المولود أنثى على غير ما كانت تتوقع لم يمنعها

ذلك من الوفاء بنذرهما، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء قال تعالى: ﴿وَأَيُّ أَعْيُدْهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36].

- ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن آية في الطهر القنوت لله والتصديق بكلماته: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينِ﴾ [التحریم: 12] (1).

7 - المرأة باعتبارها بنتاً: كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويضيقون به، حتى قال أحد الآباء - وقد بشر بأن زوجه ولدت أنثى -: والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباه وأهلها إلا بالصراخ والبكاء، لا بالقتال والسلاح، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يثد ابنته - يدفنها حية - خشية من فقر قد يقع، أو من عار قد تجلبه حين تكبر على قومها، وفي ذلك يقول القرآن منكرأ عليهم ومقرعأ لهم: ﴿وَإِذَا أَلْمُؤْمِنَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8 - 9].

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِذِهِ ۚ أَلَيْسَ كُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَن مَن يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 58 - 59].

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء وبعضها الآخر - كشرية حمورابي - تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها.

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن - هبة من الله ونعمة - يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَنَهَبٌ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۗ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُرِّيَّتًا أَوْ يُنكِحُهُمْ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: 49 - 59].

وبين القرآن الكريم في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثراً وأخلد ذكراً، من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّعْطَيْنِ الرَّجِيمِ ﴿٣١﴾ فَلَقَبَلْنَاهَا رِجْهًا يَقْبَلُونَ حَسَنًا وَأَنْبَتْنَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 35 - 37].

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته، ويبر على تربيتهن وحسن تأديبهن، ورعاية حق الله فيهن، حتى يبلغن، أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجواره ﷺ في دار النعيم

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 332 - 333.

المقيم، قال ﷺ: «من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن، أدخله الله الجنة برحمته إياهن»، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: واثنتان. قال رجل: يا رسول الله، وواحدة، قال: وواحدة⁽¹⁾.

لم تعد ولادة البنت عبثاً يُخاف منه، وطالع نحس يُتطير به، بل نعمة تُشكر ورحمة تُرجى وتُطلب، لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد، وأصبح للبنت في قلب أبيها مكان عميق⁽²⁾.

8 - المرأة باعتبارها زوجة: كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبر المرأة رجساً من عمل الشيطان يجب الفرار منه واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرد آلة متاع للرجل، أو طاهٍ لظعامه أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلن بطلان الرهبانية وينهي عن التبتل ويحث على الزواج ويعتبر الزوجية آية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

وقرر الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلها مجرد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثر من حافظ ورفيق، من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع والزمه ثالثاً.

(1) رواه الحاكم وصححه إسناده ووافقه الذهبي (4/176).

(2) ملاحم المجتمع المسلم، ص: 334.

وأول هذه الحقوق «الصداق»: الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها وإرادته لها قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4].

فأين هذا من المرأة التي نجدها في مدنيات أخرى، فدفع هي للرجل بعض مالها، مع أن فطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق هو «النفقة»: فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بالمعروف، والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وثالث الحقوق هو «المعاشرة بالمعروف»: قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطيب نفسها بالممازحة والترفيه عنها.

وفي مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج - في غير معصية طبعاً - والمحافظة على ماله، فلا تنفق منه إلا بإذنه وعلى بيته، فلا تدخل فيه أحداً إلا برضاه ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرة ولا ظالمة في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب، ومن

عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى: ﴿وَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228].

فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ومن جميل ما يروى أن ابن عباس رضي الله عنه وقف أمام المرأة يصلح هيئته، ويعدل من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزين لامرأتي كما تزين لي امرأتي، ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهَا بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم ⁽¹⁾.

ولم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزوجها، ولم يذبحها في شخصية زوجها، كما هو الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا تُعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسمائهن وأنسابهن، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي وكان أبوها يهودياً محارباً للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري، وتوَجِرَ أملاكها وتستأجر وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم.

وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثاً، ولا زالت في

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 340.

بعض البلاد مقيدة إلى حد ما بإرادة الزوج⁽¹⁾.

9 - المحافظة على أنوثة المرأة: الإسلام يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرفقة والجمال، ولهذا أحل لها بعض ما حُرِّم على الرجال، بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلي بالذهب، ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله ﷺ: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم»⁽²⁾.

كما أنه حرم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبه بالرجال في الزي والحركة والسلوك وغيرها، فهي أن تلبس المرأة لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال، مثلما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة»⁽³⁾، والديوث»⁽⁴⁾.

والإسلام يحمي هذه الأنوثة ويرعى ضعفها فيجعلها أبداً في ظل رجل مكفولة النفقات، مكفية الحاجات، فهي في كف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها، وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجاج الحياة وصراعها ومزاحمة الرجال بالمناكب.

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 341.

(2) سنن ابن ماجه رقم 3595.

(3) المترجلة: المتشبهة بالرجال.

(4) مسند أحمد رقم 1680 إسناده صحيح، الديوث: الذي لا يبالي من دخل على أهله.

والإسلام يحافظ على خُلُقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء - فضلاً عن أيدي السوء أن تمتد إليها - .

ولهذا يوجب الإسلام عليها:

أ - الغض من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 31].

ب - الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعنات لها ولا تضييق عليها: قال تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31].

ج - ألا تبدي زينتها الخفية - كالشعر والحنق والنحر والذراعين والساقين - إلا لزوجها ومحارمها الذين يشق عليها أن تستر منهم استتارها من الأجانب: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَهُ يَنْظُرُونَ عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31].

د - أن تتوقر في مشيتها وكلامها قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31].

وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32]. فليست ممنوعة من الكلام، وليس صورتها عورة، بل هي مأمورة، أن تقول قولاً معروفاً⁽¹⁾.

هـ - أن تتجنب كل ما يجذب انتباه إليها: ويغريه بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة، فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة قال رسول الله ﷺ: «أئما امرأة استعطرت ثم خرجت من بيتها ليشم الناس ريحها فهي زانية»⁽²⁾.

و - أن تمتنع عن الخلوة بأي رجل ليس زوجها ولا محزماً لها صوتاً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة الزور، قال رسول الله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»⁽³⁾.

ز - ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية، ومصحة معتبرة وبالقدر اللازم، كالصلاة في المسجد، وطلب العلم، والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تحرم المرأة من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين من ناحية ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصون عرضها من ألسنة

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 366 - 367.

(2) سنن الترمذي رقم 2786، حسن صحيح.

(3) البخاري رقم 1088، فتح الباري (2/659).

المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة، وهو - مع هذا كله - يحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيجات وهو أيضاً - بهذه الأحكام والتشريعات - يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق ويحمي المجتمع كله من عوامل السقوط والانحلال⁽¹⁾.

الرابع عشر: بناء الأمة الشاهدة على الناس:

من أهداف الإسلام الأساسية، تكوين «الأمة» متميزة. واستطاع النبي ﷺ تحقيق ذلك وفق رؤية واضحة مبنية على عقيدة راسخة وشريعة حاكمة وتخلص العرب من الفرقة والشتات والعصبيات القبلية والنعرات الجاهلية، وانتقلوا نقلة كبيرة في عالم الفكر وعالم الشعور، وعالم الواقع، وأصبحت تلك القبائل أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً وتخضع لكتاب واحد وتنقاد لزعامة الرسول ﷺ المبين والمعتبر والموضح لهم التعاليم الإلهية، وأصبحت هذه الأمة لا تقوم على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية بل هي أمة عقيدة ورسالة قبل كل شيء.

هي أمة الإسلام أو أمة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 78]⁽²⁾،⁽³⁾.

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 368.

(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 97.

(3) في ظلال القرآن (129/1) سيد قطب.

فقد أخرج الله الأمة المسلمة - التي قادها النبي ﷺ - لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والعطاء، والتميز والتماسك وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الحياة وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة⁽¹⁾.

ولم تنل هذه الأمة هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفة ولا جزافاً ولا محاباة، فالله ﷻ منزه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، بين وجه ذلك وعلته في نفس الآية، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، على أن هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة إذ هناك أمور وخلال كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكن هذه الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمر هذه الخيرية ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمور في جيل من أجيال هذه الأمة لم يكن حرياً بهذه الخيرية التي حظيت بها⁽²⁾.

(1) في ظلال القرآن الكريم ص: 71.

(2) الوسطية في القرآن الكريم، للصلابي ص: 71.

أوصاف الأمة الأساسية في القرآن:

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة:

1 - الربانية:

ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى وتعهدها تعاليمه وأحكامه، هي من اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَأَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [آل عمران: 3].

قال تعالى هو صانع هذه الأمة، ولهذا نجد القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، فهذا التعبير ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يفيد أن الله هو جاعل هذه الأمة ومستخدمها وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فتعبير «أُخْرِجَتْ» يدل على أن هناك مُخرجاً أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطاً، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نبات مقصود متعهد بال العناية والرعاية والذي أخرج هذه الأمة وزرعها وهياها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمة مصدرها رباني، ووجهتها ربانية كذلك، لأنها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ﴾ [الأنعام: 162 - 163].

2 - الوسطية:

والثاني: الوسطية التي تؤهل هذه الأمة للشهادة على الناس

وثبوتها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

ومن وسطية شاملة جامعة، ووسطية في الاعتقاد والتصوير ووسطية في الشعائر والتعبد ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع ووسطية في الأفكار والمشاعر، ووسطية بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين العقلانية والوجدانية، بين الفردية والجماعية بين الثبات والتطور⁽¹⁾.

إنها الأمة التي تمثل «الصراط المستقيم» بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

3 - الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة فهي أمة دعوة ورسالة وليست أمة منكفئة عن نفسها تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية رسالة لكل الأجناس، ولكل

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 98.

الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات.

قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، 1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

4 - الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة: فالأمة التي يريدتها الإسلام أمة الوحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات فقد صهرها الإسلام جميعاً في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

ولهذا لا يجوز أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمماً متفرقة كما أراد الاستعمار وهي أمة ذات شعوب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، فلا بأس أن نقول الشعوب الإسلامية بدل «الأمم الإسلامية»⁽¹⁾.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص: 101.

ومن المفيد هنا أن ننبه على قضية ذات شأن وهي: أن الإيمان بـ «الأمة» المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان، والتي تضم جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا. لا ينفي أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفَرِّطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة في ظل القيادة الإسلامية العامة، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرتهم.

إن حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم: نزعة فطرية لا غبار عليها، ولا خطر فيها، كما لا خطر في حبه لأسرته، واهتمامه بها.

إن الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقفوا موقفاً معادياً للإسلام وحادوا الله ورسوله، هنا تحرم المودة والموالة ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وبناته وبنيه وزوجه وأخيه، قال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

[المجادلة: 22].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْرًا أَفْتَرْتُمُوهَا وَتَجَدَّرُ تَخَشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكُنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرٍ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: 23-24].

لابأس أن يحب الرجل أسرته، ويحب قومه وعشيرته وشعبه
ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله فإن حب الله ورسوله
أعلى من كل شيء. هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم⁽¹⁾
الخامس عشر: السماحة:

السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها والسماحة سهولة
المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة
والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى،
يقال سمح فلان إذا جاء بمال له. قال المقنع الكندي:

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل
فالسماحة أخص من الجود، ولهذا قابلها زياد الأعجم بالندی
في قوله:

إن السماحة والمروءة والندی قي قُبَّةٍ ضُربت على ابن الحُشْرَجِ
فتدل السماحة على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن
جابر ابن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا
باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»⁽²⁾.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 102.

(2) البخاري رقم 2076.

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»⁽¹⁾.

فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الآية أو هذا الخبر، حتى يقول معترض إن الأصول القطعية لا تثبت بالظواهر، لأن أدلة هذا الأصل كثيرة منتشرة وكثرة الظواهر تفيد القطع ولهذا قال الإمام مالك بن أنس في مواضع من الموطأ ودين الله يسر وحسبك بهذه الكلمة من ذلك الإمام، فإنه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة إن السماحة أكمل وصف لاطمئنان النفس وأعون على قبول الهدى والإرشاد⁽²⁾، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهْتُمْ لَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفُتُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة فهي كائنة في النفوس سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وقد أراد الله أن تكون الشريعة الإسلامية شريعة عامة دائمة،

(1) البخاري الأدب المفرد رقم 188.

(2) أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر عاشور، ص: 51.

فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعانات، بسماحتها أشد ملاءمة للنفوس، لأن فيها إراحة النفوس في حالي خُوِيصتها ومجتمعها⁽¹⁾.

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، إذ أَرانا التاريخ أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامهم على اتباعها كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغ بعض الأديان من الشدة حدًا متجاوزاً لأصل السماحة لحق اتباعه العنت ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه أو يفرطوا في معظمه⁽²⁾.

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقدر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة انفتاح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَابِغٍ وَلَا عَادِرَ فَلَا إِئْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 173].

وبقوله: ﴿إِلَّا مَا أَضْطَرَّتْهُ إِلَى﴾ [الأنعام: 119]، وفي الحديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»⁽³⁾.

ومن قواعد الفقه المشهورة: المشقة تجلب التيسير⁽⁴⁾.

1 - ومن سماحة القرآن الكريم، إنكاره على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر، ص: 271.

(2) أصول النظام الاجتماعي، ص: 52.

(3) صحيح ابن حبان رقم 354.

(4) أصول النظام الاجتماعي، ص: 52.

- قال تعالى: ﴿يَبَيِّنْ مَادَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 31 - 32].

وفي القرآن المدني، يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٧﴾ وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: 87 - 88].

وهاتان الآيتان الكريمتان تبيان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان، أو عند بعض المتنطعين⁽¹⁾.

2 - ومن سماحة الإسلام أيضاً: ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله ﷻ، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما: حسنة والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادل بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة وتقريباً للأنفس المتباعدة⁽²⁾.

(1) سماحة الإسلام، عمر عبد العزيز، ص: 370.

(2) المصدر نفسه ص: 30.

3 - من سماحة النبي ﷺ: جاء فتى من قريش إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا، فثار الصحابة وهموا به لجرأته على النبي ﷺ، ولكن النبي ﷺ وقف موقفاً آخر فقال: «ادنه» فدنا فقال: «أتعجه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك؟ قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: «أتعجه لكذا؟» فيقول: لا جعلني الله فداك، فيقول ﷺ: «ولا الناس يحبونه..» فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء»⁽¹⁾.

وإنما عامله النبي ﷺ بهذا الرفق، تحسناً للظن به، وأن الخير كامن فيه والشر طارئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله، واطمأن قلبه إلى خبث الزنا وفحشه، وكسب مع ذلك دعاء النبي ﷺ⁽²⁾.

الرابع عشر: الرحمة:

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها والتوبة بشأنها لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدنيوية⁽³⁾.

1 - الرحمة صفة من صفات الله تعالى:

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه

(1) مسند أحمد (5/256).

(2) سماحة الإسلام، د. عمر عبد العزيز، ص: 31.

(3) أخلاق النبي في القرآن والسنة، د. أحمد الحداد (2/611).

كثيراً في القرآن العظيم في نحو مائتي آية، فضلاً عند تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك البسمة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براء⁽¹⁾.

وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته.

- قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَنْفُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴿[الأعراف: 156 - 157].

- وقال تعالى على لسان ملائكته الكرام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿[غافر: 7].

- وقال تعالى تعليماً للنبي ﷺ أن يقول للمشركين إن هم كذبوه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأْسُهُمْ عَنِ الْقَوَامِ الْمُجْرِمِينَ ﴿[الأنعام: 147].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبداً، كما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿[الأنعام: 54].

وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا فيها يتعايشون ويؤاخون، ويوادون، وفيها يتقبلون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة

(1) أخلاق النبي في القرآن والسنة، د. أحمد الحداد (2/612).

لا حظ للكافرين فيها⁽¹⁾.

2 - من مظاهر رحمته بخلقه:

وقد كانت أجل مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسوله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه وسيد رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الذي أمتن به على الأمة وكشف به الظلمة وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

- وقد حدث النبي ﷺ عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، فقال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي»⁽²⁾.

- وقال رسول الله ﷺ: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»⁽³⁾.

- ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها، إذا

(1) محاسن التأويل (157/7) للقاسمي.

(2) صحيح مسلم رقم 2751.

(3) صحيح مسلم رقم 2754.

وجدت صبياً في السبي أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: الله أرحم بعباده من هذه بولدها»⁽¹⁾.

3 - حض المؤمنين على التحلي بها:

ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثهم عليها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن لينالوا أجرها وعظيم ثوابها، وذلك كالرحمة بالوالدين اللذين عظم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره، وطاعتها بطاعته، فكانت الرحمة عند الكبر محتمة حيث قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

وقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

- كما أثبتنا يلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه:

﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم بسبب التراحم بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجل صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ،

(1) صحيح مسلم رقم 2754، تحلب: اجتمع حليب ثديها فيه.

مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعدّه الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: 17 - 18].

أي أصحاب اليمين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾ فِي بَيْدَرٍ مَّخْضُورٍ ﴿٧٨﴾ وَطَلِيحٍ مَّنْضُورٍ ﴿٧٩﴾ وَظَلِيٍّ مَّمْدُورٍ ﴿٨٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٨١﴾ وَفِكَهَمَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٨٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٨٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْجُوعَةٍ ﴿٨٤﴾﴾ [السراة: 27 - 34]⁽¹⁾.

وقد كان رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في تحقيق هذا المقصد وهو الرحمة بالعالمين، فكانت رحمته بالمؤمنين، وبالأهل والعيال وبالضعفاء والكافرين والحيوان وكتب السيرة مليئة بالمواقف والأحاديث الدالة على ذلك.

السابع عشر: الوفاء بالعهود والعقود:

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر وسلامة الإيمان⁽²⁾.

1 — الترغيب بالوفاء بالعهد:

رغب الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعد الله لهم من الثواب

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/615).

(2) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/549).

وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10].

وقد فصل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ (٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارَ﴾ (٢٢) ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤) [الرعد: 19-24].

فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهلوه، لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الشناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله إلا أن يكون ممن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار.

2 - الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن:

الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه لأنه مبني على المشاحة والمقاصة، فالوفاء فيه يصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات منها:

- قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

- وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35]⁽¹⁾.

وتحدث القرآن الكريم عن شعيب عليه السلام مع قومه، فقد كان قومه بحكم موقع بلادهم الجغرافي يتحكمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق، فكانوا يفرضون على الناس ما شاءوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعياً إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاة لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات حتى صارت أمراً متعارفاً عليه عندهم، فلما بعث الله شعيباً عليه السلام استهل دعوته بمحاربة ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان، ثم ثنى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها نقص الميزان والمكيال⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

ولهذه الآية نظائر في سورة هود، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

(1) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة (2/554).

(2) أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا، ص: 450.

تُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَقْوَمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ [هود: 84 - 85].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُخْسِرِينَ ﴾ [الشعراء: 181].

ونجد تركيز شعيب على معالجة هذا الانحراف المتأصل في
قومه بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

وقد كان لقوم شعيب معاملات أخرى جائزة غير نقص المكيال
والميزان وذلك أمر متوقع ممن يمارس هذا العمل ونجد شعيباً يذكر
هذه المعاملات في جملة من الأمور التي نهاهم عنها وهي:

أ - بخرس الناس أشياءهم: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85].

والبخرس في الأصل هو النقص، ومن أحسن ما قيل في حده
قول ابن العربي رحمه الله: البخرس في لسان العرب هو النقص
بالتعيب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في
الكيل أو النقصان منه⁽¹⁾.

فالبخرس على هذا أعم من نقص الميزان والمكيال، فإنه يكون
في المكيال والموزون وغيرهما كالمعدودات، والمقدرات فيعم كل
تصرف يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا
تنقضي⁽²⁾.

(1) أحكام القرآن (2/318).

(2) أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا، ص: 450.

ب - الفساد في الأرض: وقد ورد في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85].

والفساد في الأرض أعم من كل ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادة غير الله، ونقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وغير ذلك⁽¹⁾.

ج - قطع الطريق: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوِّدُونَ﴾ [الأعراف: 86]. وفي هذه الآية نهي عما كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته، فيصدونه ويقولون: إنه كذاب⁽²⁾، وهذا من الأوجه التي حُمِلت هذه الجملة، وذكر فيها وجهان آخران، أولهما: قطع الطريق وسلب أموال الناس، وثانيهما: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس وجوز الشوكاني رحمه الله حمل الجملة على هذه الأوجه كلها⁽³⁾.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه فإنه لم يلق منهم غير العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم وتأصلها فيهم، وفي آخر الأمر ردوا عليه ردًا قبيحاً، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضرباً من الهذيان سببه ما يدوم عليه من الصلاة، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ

(1) أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا، ص: 451.

(2) المصدر نفسه، ص: 451.

(3) المصدر نفسه، ص: 452، فتح القدير (224/2).

أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْغَلِيظُ الرَّشِيدُ ﴿[هود: 87]،
فقولهم: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون به ما درجوا
عليه من نقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وسائر
معاملاتهم الظالمة، فاستهزؤوا بشعيب، وأنكروا عليه تدخله في
تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون
فيها كيف شاؤوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عين ما يردده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا
العصر، بل وفي كل عصر، يتعاطون أكل أموال الناس بالباطل عن
طريق الغش والخداع، والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة،
فإذا نهوا عن ذلك تعللوا واحتجوا بما يسمونه بحرية الاقتصاد،
واستكروا أن يتدخل الدين في هذه الأمور⁽¹⁾.

والأجدر بهؤلاء، لا سيما المنتسبين منهم إلى الإسلام أن
يعتبروا بما حلّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك بسبب
معاملاتهم الظالمة وإصرارهم عليها، أفيأمن أحدهم أن يأخذه الله
بعاجل العذاب، ويجعله عبرة لأهل زمانه ولمن بعده، كما جعل
قوم شعيب عبرة لأهل زمانهم ولمن بعدهم والعاقل من اتعظ بغيره،
لا من وعظ به غيره⁽²⁾، فقد كان قوم شعيب أهل شرك وكفر،
وتطيف للمكاييل والموازين، ولم يُجد معهم دعوة شعيب إياهم

(1) في ظلال القرآن، (4/609).

(2) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص: 453.

إلى التوحيد، وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عناداً وإصراراً، فأصابتهم الظلة وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام⁽¹⁾.

3 — الأمر بالوفاء بالعقود:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها وإنما سمي الله تعالى هذه التكاليف عقوداً، لأنه ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق⁽²⁾، فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييماً لهم على الوفاء بالعقود، لأن ذلك من مقتنيات الإيمان الذي تعلوا به⁽³⁾.

4 — الأمر بالوفاء بالنذر:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ⁽⁴⁾ وَلَيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلَيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: 29].

والنذور: جمع نذر وهو التزام قرينة لم تتعين في الشرع⁽⁵⁾،

(1) تفسير ابن كثير (2/242).

(2) التفسير الكبير (11/123).

(3) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/558).

(4) أي ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر.

(5) اليقوت النفيس للشاطري، ص: 264.

ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذر الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه .

وهو ما شملته آية المائدة السابقة، لأن عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب في الدنيا، إذ لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان⁽¹⁾.

ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفاً حيث قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: 270].

فإذا كان النذر يعلمه الله تعالى فإن رهن المجازاة به أداء أو تفريطاً، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يف به أما إذا وقى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم⁽²⁾.

5 — تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ [الرعد: 19-20].

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك،

(1) أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة (2/ 559).

(2) أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة (2/ 559).

وفاته بقوله: ﴿يَا بَرَهَيْسُ ﴿١٢٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصفافات: 104-105] (١).

كما ابتلاه الله أيضاً بكلمات من التكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: 124].

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

وفى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية (2).

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خلق الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في غيابة الجُبِّ، ناهيك عما أورثوه أباهم نبي الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلما وفد إليه إخوانه بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض، قال تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].

هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوان والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق الكريم اللائق من نبي كريم، ولا ريب فهو

(1) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة (2/ 560).

(2) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة (2/ 561).

الكريم ابن الكريم ابن الكريم، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم. (1)

6 — ما أعدده الله لأهل الوفاء من الأجر والجزاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ يُؤْتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ﴾ [الذمر: 5 - 7].

فسماهم الله تعالى أبراراً، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه الله على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى (2)، وذلك يدل على قوة الإيمان، إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند الله تعالى إنما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعُكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه (3).

فهذه من أهم مقاصد القرآن الكريم، وقد تناولنا بعضها، كتصحيح المعتقد، وتقوى الله وعبادته وتزكية النفس، والحرية،

(1) المصدر نفسه (2/ 561).

(2) أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة (2/ 561)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص:

(3) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 561).

والشورى، وكرامة الإنسان، وتحرير المرأة من ظلم الجاهلية،
وتكوين الأسرة، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة،
والرحمة، والوفاء بالعهود.